رأى فى تحديد العصر الجاهلى

بحث قدمه إلى مؤتمر المجمع اللغوى

صاحب العزة ابراهيم مصطفى بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

بقية ما نشر فى العدد الماضى

ولا نذكر التجاء اليمن إلى الفرس أعداء الروم ولا استمدادهم لتصيب من حكم بلادهم ولا سعى الفرس لبسط سلطانها عليهم، وإنما نذكر أن بلاد العرب خلت من دولة تحكمها وتؤمن سبلها وتحمى تجارتها ووقعت فى فوضى نرى بعض صورها فى شعر كشعر الحارث بن حلزة إذ يقول :

هل علمتم أيام ينتهب النا ... س غواراً لكل حى عواء
لا يقيم العزيز بالبلد السهـ ... ـل ولا ينفع الذليل النجاء
ليس ينجى موائلا من حذار ... رأس طود وحرة رجلاء

فهذا عندنا حد العصر الجاهلى العربى وتلك سماته التى أوحت إلى الشاعر القديم أن يقول :

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وإذا نظرنا إلى الجزيرة العربية فى هذا القرن وجدنا آثار المسكرات اليمنية ومعاقلها مبعثرة فى أنحاء الجزيرة

بنو الحارث بن كعب فى جنوب الحجاز وكانوا يلقبونهم ملوكا، والأوس والخزرج فى شماله، وفى نجد طى وكلب وملوك كندة - وفى عمان الأزد، وفى تخوم العراق الناذرة، وفى مشارق الشام الغساسنة، وكلهم ينتسبون إلى اليمن وقد نشبت الحروب بينهم كل يريد الملك لنفسه كما فعل قواد الاسكندر فى ملكه الواسع من بعده. وثار العرب من غير اليمن وهم العدنانيون وتطلعوا إلى الاستقلال والتفرد بالسلطان، واشتعلت الحرب بين العدنانيين واليمنيين وبين العدنانيين والعدنانيين - ونهض كل مغامر طموح، وطمعت كل قبيلة ذات قوة أن تستبد بالسلطان وغلبت عليهم حمية المداوة والثأر ومضى شعراؤهم يتفنون بفظائع الحرب

وحليل غانيـة تركت مجدلا ... تحكو فريصته كشدق الأعلم
فشككت بالرمح الأصم جنانه ... ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه ... ينحطن حسن بنانه والمعصم

* * *

كأن جماجم الأبطال فيها ... وسوق بالأماعز يرتمينا
نجز رؤوسهم فى غير بر ... فما يدرون ماذا ينفرونا

ولكن حياة العرب - كما قدمنا - تعتمد على التجارة ورزقهم منها ولابد لهم أن يتجروا ليعيشوا - والأثر الوارد : تسعة أعشار الرزق من التجارة. والرسول كان منذ الصبا تاجراً وأبوه وعمه وجده تجار، وزوجه خديجة ترسل فى التجارة أموالها وبسبب من التجارة كان زواجها - وأبو بكر وعمر وعثمان تجار، وما شئت من وجوه الصحابة وأشراف العرب كانوا يعملون فى التجارة

واللغة نفسها تحمل أثر التجارة وغلبتها على أعمالهم؛ فالإيمان تجارة لن تبور، وتجارة تنجيكم من عذاب أليم، والله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. والمؤمنون لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. وعهد الخلافة بيعة

فلابد لهم من التجارة ليعيشوا ويرتزقوا. ولا مناص لهم من الحرب ليثأروا ويتسلطوا، وهنا عظمت شعائر الأشهر الأربع الحرم

وشاعت البيوت المحرمة الآنية وكان أمجدها بيت قريش بمكة، وحرم الله الذى امتن به القرآن على قريش « أو لم يروا أنا جعلنا لهم حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم »

وبدت عادة التحالف وتضام بعض القبائل إلى بعض والحرص على العهد والوفاء بالعقد

واذكروا حلف ذى المجاز وما قد ... م فيه - العهود والكفلاء
حذر الطيش والتعدى وهل ... ينقض ما فى المهرق الأهواء

وبدت نغمة التحذير من الحرب والثناء على السلم وتمجيد مساعيه

يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما أن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم

* * *

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم

والشعر لزهير فى معلقته . ولداه كعب وبجير قد لقيا المصطفى وآمنا به

فهذا تحديد العصر الجاهلى وتلك ملامحه ومعالم حوادثه، يبتدئ بفقد حكومة البلاد وضياع أمنها واضطراب نظامها فى سنة ٥٢٥ وينتهى بقيام الحكومة التى نقر السلام وتنشر الأمن فى سنة ٦٢٢

وما بينهما عصر الجاهلية والفوضى والتناحر على السلطان

ومنذ بدا لى هذا الرأى جعلت أحتبره فيما أقرأ من أخبار فأرى حوادث الجاهلية تمضى فى حدوده منسجمة متسقة متضامة يوضح بعضها بعضا

وأجد من الشواهد فى تواريخ الأمم المجاورة ما يؤيده

فالغساسنة كانوا يتاخمون الروم فى الشام قبيل الإسلام ولهم مع الدولة البيزنطية صلات مدونة نرى أنها مرت بحالتين : صلة الجار المجاور الذى يسالم ويحارب، وصلة التابع الذى يستمد ولايته الشرعية بتوليته غيره

وللمستشرق العظيم نلدكه بحث فى تاريخ أمراء غسان كتبه وهو شاب لينال به الدكتوراه ثم رجع إليه بالتحقيق بعد النضج وبعد ما ظهرت مستندات من تأليف المعاصرين ومن السجلات الرسمية فى الكنائس وغيرها — وقرر أن أقدم اتصال للغساسنة ببيزنطة اتصال التابع المستعين كان فى زمن الحارث الأكبر من سنة ٥٦٩ إلى سنة ٥٦٦ إذ أنعموا عليه ثم على ولده من بعده بلقب بطرق وهو لقب حكام الأقاليم عندهم. وتفسير ذلك عندى أن الغساسنة وهم يمنيون كانوا يستمدون سلطانهم من دولتهم اليمنية ويجاورون الروم مجاورة الجار قد يسالم وقد يحارب؛ فلما زالت دولة اليمن وجاءهم الحرب من حيث كانوا يلتمسون العون اضطروا إلى الاستعانة بالروم واستمداد السلطان منهم. ونعلم أن العربى لا يقبل هذا إلا بعد القهر والقسر

وفى بلاد تخوم العراق كان المناذرة ملوك الحيرة وكان لهم اتصال بملوك الفرس من آل ساسان

ونقرأ من أخبارهم أن « يزدجرد » أرسل ولده « بهرام » ليتربى فى بلاط المنذر بالحيرة

وأن « يزدجرد » لما مات ثار الفرس رافضين أن يتولى أحد من أولاده لأنهم كانوا يكرهون من حكمه؛ وأن بهرام استعان بالمنذر وولده النعمان فى جيش قدروه بثلاثين ألفاً وبهم تمكن من الجلوس على عرش أبيه ، ولا أرى فى هذا صورة التابع الخاضع، وقد كان ذلك سنة ٤٢٠

ولكن فى زمن كسرى أنوشروان نرى المنذر الثالث يتولى السلطان من يد كسرى ، وحكم كسرى من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٨ والمنذر قتل فى واقعة محددة التاريخ سنة ٥٥٤ واستمر الأمر على ذلك يولى الفرس حاكم الحيرة من المناذرة — وربما ولوه من غيرهم كما ولوا عليها إياس بن قبيصة الطائى

فهذه أسرة يمنية أخرى تبدلت طبيعة اتصالها بجارتها بعد أن سقطت دولة اليمن سنة ٥٢٥

وفى داخل الجزيرة كان امرؤ القيس آخر ملوك كندة وقد حاربه المنذر الثالث وحارب أسرته ثأرا على الملك وقتل كثيراً من أمراء كندة صبراً ويبكيهم امرؤ القيس فيقول :

ملوك من بنى حجر بن عمرو ... يساقون المنية يقتلونا
فلو فى يوم معركة أصيبوا ... ولكن فى ديار بنى مرينا
فلم يغسل جماجمهم غسل ... ولكن فى الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم ... وتنزع الحواجب والعيونا

وإذا كان المنذر يستند إلى سلطان الفرس فإن سبيل امرئ القيس أن يستعين بمنافسيهم الذين ينازعونهم الرغبة فى التسلط على البلاد العربية وهم الروم ويقصد فى ذلك إلى الحارث بن جبلة والحارث كما علمنا ولى من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٦٩

وهكذا نرى أن ما نكشف من تاريخ الحوادث يؤيد مابدا لنا من التحديد

فإذا تقرر تحديد العصر الجاهلى على هذا الوجه فتح الباب لدرسه دراسة قوية؛ وكان ما بأيدينا من الشعر الروى مدداً كافياً لتنوير هذا العصر وتوضيحه

فإذا أخذنا قبيلة واحدة مثل قبيلة بكر وهى أخت تغلب وكلتاهما من وائل — ووائل فرع من فروع ربيعة

إذا أخذنا هذه القبيلة وجدنا أنا نروى لأكثر من خمسين شاعراً من شعرائها يبلغهم نحو عشرين يمكن أن يكون شعر الواحد منهم ديوانا؛ وخمسة لهم دواوين مطبوعة متداولة بأيدينا وهم